عبد الله النديم

لسان الإصلاح والحرية

حيثما يثور الإنسان على الواقع المألوف.. فهو يهدف إلى تغييره وإصلاحه.. ولا يستطيع أن يقوم بذلك دون أن يتسلح بالشجاعة والمغامرة والحب والإخلاص..

ونحن اليوم مع شخصية أفنت عمرها من أجل الدعوة إلى الإصلاح.. فكان جزاؤها الاضطهاد والتربص.. والتهديد.. مما دعاها إلى أن تلجأ إلى نفي الذات بعيدا عن هذا الواقع المريض..

إنه الثائر المصلح عبد الله النديم..

ولن يكون حديثنا عنه شاملاً.. وإنما سوف نقف على شاعريته وكيف كان شعره غصَّة فى حلق الاحتلال والحكام الفاسدين.

ولد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسي فى عام 1845 بالإسكندرية ودرس فى المسجد الأنور.. لكنه اتجه إلى الأدب واشتهر بالإسكندرية بالأديب الناشئ.. وصار يدعى إلى المجالس الخاصة و(ينادم) السادة..ويترسل ويقول الشعر.. فأطلق عليه (النديم).. وصار محترفاً فى المنادمة.. محترفاً فى الخطابة والشعر.

وانتقل النديم إلى القاهرة ليعمل فى مكتب تلغراف القصر العالي.. وتعرف على جمال الدين الأفغاني الذى كان أبا روحياً للثوار المصريين.

وأصدر النديم مجلة التنكيت والتبكيت ـ ثم مجلة للطائف ـ ثم مجلة الأستاذ.. ليدخل النديم عالمي الأدب والسياسة من أوسع أبوابهما.

obeikandl.com

ويشارك فى الثورة العرابية بشعره وخطبه ومقالاته حتى إن كثيرين لقبوه بلسان الثورة.

ويذكر أنه لما سافر الألاى السوداني الذى كان يقوده الأميرالاي عبد العال حلمي أحد زعماء الثورة من القاهرة إلى دمياط فى أكتوبر 1881.. كان يوماً مشهوداً احتشدت فيه الجماهير فى محطة القاهرة لتحية الألاى وكان بين المودعين أحمد عرابي.. والبارودي.. وعبد الله النديم الذى وقف يخطب فى حماسة وطنية ثم قال:

إليكم يرد الأمر وهو عظيمُ
فإنى بكم طول الزمان رحيمُ
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى
فمن أين يأتى للديار نعيمُ
وإن الفتى إن لم ينازل زمانه
تأخر عنه صاحبٌ وحميمُ
فردوا عنان الخيلِ نحو مخيم
تقلّبه بين البيوت نسيمُ
وشدوا له الأطراف من كل وجهة
فمشدود أطراف الجهات قديمُ
إذا لم تكن سيفاً فكن أرض وطأة
فليس لمغلول اليدين حريم

obeikandl.com

وحين وقعت هزيمة الثورة العرابية ظل مخلصاً لها..

وكان النديم من هؤلاء الذين أمرت الحكومة باعتقالهم.. لكنها عجزت عن القبض عليه.. فقد ظل مختفيا عن أعين الحكومة وجواسيسها نحو تسعة أعوام.. ورصدت الدولة ألف جنيه لمن يرشد عنه.. لكنها لم تهتد إليه.

وفى سنوات الاختفاء هذه حدثت له أحداث جسام بعضها أقرب إلى الخوارق والأساطير.. وقد كتب النديم خلال هذه السنوات أشعاراً كثيرة بقي منها القليل.

ثم قبض عليه ونفى إلى (يافا) فى أكتوبر1891.. ثم صدر حكم العفو عنه فى 3فبراير 1892 فعاد إلى مصر والاستعمار يتحكم فى كل مرافق الحياة لكن روحه الثورية لم تخمد.. بل ظلت مشتعلة فى كتاباته.

ولم يكف النديم عن نظم القصائد التى تحذر الشعب من الاستعمار وأعوانه.. ومن ذلك قوله:

ينادونكم للغير باسم صلاحكم

وسمّ الأفاعى فى صناعتهم حبرُ

أزيلوا بنى ودىّ تنافرَكم ولا

تميلوا لما ضر الصدور به الغمرُ

تنافركم بالدين ينثر جمعكم

ويجعلكم نوقاُ يشردها النيْرُ

مذاهبكـــم شـــتى وكـــلٌّ بدينـه

قـــرير عيـــون لا يحـــوّله النْعـــرُ

أو يقول فى وصف ليلة هروبه واختفائه:

أ أنسى يـوم مـصر والبلايـا تطاردنـــي ولا ألقـــى مـــعينا

أحاطوا بي وسدّوا كل باب وصـــرنا بـين أيــدى الباحثيـنـا

وكان السطـح مملوءاً بجنـدٍ وخلف البيت كم وضعوا كمينا

وأعمـى الله عنـا كـل عـين وكـــنا للعـــساكـر ناظـــرينا

وألقى الله ستر الحفظ فـضلاً فلـــم تـــرنا عـــيون المبلـــسينا

ونجى الله بعـد اليأس عبداً يـرى الرحمن خير المـــنقـــذينـا

وهو هنا يتمثل ما حدث للرسول (ص) فى ليلة الهجرة.

ثم نفى النديم مرة أخرى إلى استنانبول حيث لحق بالسيد جمال الدين الأفغاني عام 1893 وظل هناك إلى أن رحل عن الدنيا فى 11 أكتوبر عام 1896 بعيدا عن وطنه الذى ظل يدافع عنه طوال حياته.

ومن أشعاره التى كانت تدعو إلى الجهاد قوله:

بنـو العـــرب هـــيا لا يعـيش جبـانُ

فجـسمـى وروحـــى هـــمةٌ وجَنـانُ

أديروا بنى مـصر رحـاى عـلى العـدا

فليـــس لأهـل البغـــى بعـــد أمـانُ

وردوا عـــدوا يبتغـــى بقتالكـــم

ديـــاراً ثـــراها عـــسجدٌ وجمـــانُ

أروه الليالي السود بالضرب فى الضحى

ليعـــرفه بعـــد الحـــروب هـــوانُ

أروه وقـــوف الأُسْـــد تحمـــى ديارهـــا

يحـــدثه عـــما تبيـــن عـــيانُ

فكونـــوا رجـــالاً أهلكـــوا شـــر أمـــة

ســـياستها دون الأنـــام دِهـــانُ

وردوا لهـــذا القطْـــر أول مجـــده

ففـــى يدكـــم مـــن ســـاكنيه عنـــانُ

وكتـب النـديم مـسرحية (الـوطن) فى أثنـاء عملـه بالمدرسـة الخيريـة بالإسكندرية.. وشهد عرضها الخديوى توفيـق وكـان فى بدايـة حكمـه فى جانب الحرية والإصلاح.

وفى هذه المسرحية يقول:

قـل للنفوس التى ماتـت بـلا أجـلٍ

أيـن القلـوبُ التـى كانـت تجارينـا

أيـن الـشيوخ الألى سـاروا وسـيرتهم

مسـك نـدىّ يبـارى مسـك دارينـا

أيـن العلــوم التـى كــانت توصـلنا

باب السـعود فـصارت مـن أعادينـا

كانت وكانوا وصـار الكـل فى عـدمٍ

واســتبعدتنا بمـــا نهـــوى أمانينـا

نمشى حفاة عـلى شــوك القتـاد فـلا

يؤذى النفــوس وكـان الخـز يؤذينـا

اســـتودع الله قـــوماً كـــان طـبعهم

يُبدي لـك الحـالتين : اليـأس واللينـا

ويبدو أن الشدائد قد صقلت روح النديم.. فلـم يستـسلم لمحنتـه.. ولم يدع اليأس يتسرب إلى نفسه فى أى لحظة من لحظات الاضطهاد والنفى..

ويكفى أنه حـين نفـى مـرة أخـرى إلى اسـتانبول بعـد تـدخل اللـورد كرومر.. ودع قراءه فى صحيفته (الأستاذ) التى تعطلت أيضا بنفيه.. قائلا:

أودعكــم والله يعلــم أننــي أحب لقاكم والخلود إليكمُ

وما عن قلًى كان الرحيل وإنما دواع تبدت والسلام عليكم

ويودع الأصدقاء النديم فى مثواه الأخير باستانبول ولسان حاله يقول:

بــالأمس كـــان غريبــا فى ديــاركم

واليوم صار غريـب اللحـد والكفـن

obeikandi.com